

الترجمة في الأدب العربي

وتراجم عظائنا المحدثين

للأستاذ محمد عبد الله عنان

في العام الماضي فكر جماعة من الأساتذة والكتاب في إصدار مجموعة من التراجم القوية المحققة لعطاء مصر في العصر الحديث . وكانت الناية من إصدار مثل هذه المجموعة علمية قومية قبل كل شيء ؛ فليس في تراثنا التاريخي المعاصر مثل هذه السلسلة ؛ وما زالت سير الكثيرين من عظائنا مجهولة مغمورة ، وما زال شبابنا التعلم يتوق الى استعراض هذه السير في بحوث محققة ممتعة تفري بالقراءة والدرس فلا يجدها . وسير العطاء زينة التاريخ القومي ، والتاريخ القومي غذاء للشعور الوطني . ولكن هذا المشروع العلمي الجليل لم يجز مع الأسف طور التفكير ، وطوى كما طويت مشاريع مثله من قبل .

إن تراجم العطاء تشغل في آداب الأم العظيمة وفي تاريخها أسمى مكانة ، فأقطاب الأسماء والساسة والقادة والعلماء والشعراء والأدباء والفنانين ، هؤلاء جميعاً يأخذون مكانهم في التاريخ القومي العام ، ثم يأخذون مكانهم في تراجم خاصة ، تذهب أحياناً الى البحوث النقدية السنتيفية التي تشغل مجلدات بأسرها وتخصص للراجعة العلمية والدراسة العليا ؛ وتقتصر أحياناً على صور موجزة ، ولكن قوية ممتعة تخصص لدرس الشباب والقراءة العامة . ويخص هؤلاء العطاء بالدرس في كل عصر ووقت ، ويحفظون بمختلف البحوث والدراسات ، وقد تصدر عن أحدهم عشرات التراجم والسير ، ولكل مقامها العلمي والأدبي . أما نحن فكما أن النقص يمتور تاريخنا القومي ، وكما أن هذا التاريخ لم يكتب بمد بما يجب من تحقيق وإفاضة ، فكذلك يمتور النقص لدينا هذه الناحية الخاصة ، أعني ناحية التراجم والسير المفردة ؛ وقبلنا حظيت آدابنا التاريخية بترجمة محققة وافية لعظيم من عظائنا المحدثين .

على أن هذه الناحية الخاصة من الباحث التاريخية تشغل في

الأدب العربي القديم مكانة هامة . وقد بدأت العناية بها في عصر سكر جداً . فنذ القرن الثاني للهجرة يعني الرواة والمؤرخون الساعون بالسير والتراجم المفردة . وقد لبثت تراجم العطاء الخاصة حتى أوائل القرن الثالث عشر الهجري تملأ فراغاً كبيراً في الآداب التاريخية العربية ؛ ولم تقف الترجمة الخاصة عند نوع معين أو طائفة معينة من العطاء ، بل تناولت رجال السيف والقلم ، والملوك والوزراء ، والقادة والمفكرين ، والبيكات والشعراء من كل ضرب ؛ ومنها الموسوعات العامة ، ومنها المجموعات الخاصة لطوائف معينة ، ومنها التراجم والسير الفياضة ، ومنها الموجزة . وفي الآداب العربية من هذه وتلك تراث شاسع قد لا تحظى به أية آداب أخرى ، اذا استثنينا العصر الحديث الذي ركبت فيه الآداب العربية ، ونهضت فيه الآداب الأخرى . غير أن هذا التراث الخافل يقف مع الأسف عند بدء تاريخنا الحديث ، وينقطع سيره انقطاعاً تاماً ، فلا تكاد نغفر في ذلك العصر بآثار قيمة في التراجم العامة أو الخاصة ؛ وهذه ثغرة في آدابنا التاريخية لم نوفق الى تداركها حتى اليوم .

ويجبونا أن نستعرض بهذه المناسبة طرفاً من تراث التراجم والسير الخاصة في الأدب العربي ، لنذكر شبابنا التعلم بما خص به هذا الفن في أدبنا من العناية والاهتمام ، وما انتهى اليه من النضج والتقدم . وما نذكره هنا هو على سبيل التمثيل فقط ، إذ يقتضى الإلام بجميع آثار هذا الفن تفصلاً بأسرها . وفي مقدمة هذه الآثار السيرة النبوية الكريمة ، وأشهرها وأنقسطها سيرة ابن اسحاق التي دونت في منتصف القرن الثاني من الهجرة . وكتب ابن التديم كتاب الفهرست الشهير في أواخر القرنين الرابع ، وألم فيه بطائفة كبيرة من تراجم الفلاسفة والمفكرين والكتاب وآثارهم حتى عصره ؛ ومنذ القرن الخامس يعظم ميدان هذا الفن ويتسع ، وتوضع فيه الموسوعات الكبيرة ؛ فنجد الخطيب البغدادي التوفي في أواخر هذا القرن يستعرض في كتابه الضخم « تاريخ بغداد » مئات من تراجم العطاء وللخاصة في جميع النوازل الإسلامية ؛ وفي القرن السابع وضع القاضي الأجل شمس الدين بن خلكان موسوعته العامة « وفيات الأعيان » في تراجم العطاء من كل ضرب . ولا ريب أن معجم ابن خلكان

له العلامة أحمد تيمور باشا عدة تراجم لبعض أعيان مصر في القرن الرابع عشر ، وهي التي نشرتها « الرسالة » نباعاً في أعدادها الأخيرة .

هذا عن التراجم العامة . وأما عن الترجمة المفردة التي تقتصر على سيرة شخص معين ، والترجمة الخاصة التي تعالج طائفة خاصة من الأعلام ، فلدينا منها الكثير أيضاً ، ونستطيع أن نمثل للترجمة المفردة بسيرة عمر بن عبد العزيز لمحمد بن عبد الحكم المتوفى في أوائل القرن الثالث ؛ وسيرة المزدلين الله لابن زولاق المصري المتوفى في أواخر القرن الرابع ، وقد ضاعت ولم يصلنا منها سوى شذور قليلة ؛ وسيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزي من علماء القرن السادس ، وتاريخ تيمورلنك المسمى « بجانب المقدور » لابن عربشاه الدمشقي من علماء القرن الثامن ؛ وترجمة المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون بقله ؛ وترجمة الحافظ ابن حجر بقلم تلميذه السخاوي ، وترجمة ابن الخطيب للمقرئ ، وغيرها . ولدينا الكثير أيضاً من تراجم الطوائف الخاصة كالفلاسفة والأدباء والقضاة والنحاة وغيرهم ، مثل أخبار الحكماء للقفطي ، وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ، وبيضة الدهر للشعالبي ، ومعجم الأدباء لياقوت ، وقضاة مصر لابن حجر ، وكثير غيرها ؛ هذا عدا كتب الطبقات الخاصة بتراجم فقهاء المذاهب المختلفة وهي كثيرة لا يتسع المقام لذكرها .^(١)

والخلاصة أن الأدب العربي فني بترائه في فن الترجمة ، وقلما تنافسه في ذلك آداب أخرى ، إذا استثنينا العصر الحديث . ولكن هذا التراث الحافل يقف مع الأسف عند بدء تاريخنا الحديث ؛ ولو لم يهذب لمصر مؤرخها البارع عبد الرحمن الجبرتي في القرن الثاني عشر (القرن الثامن عشر الميلادي) ويتحفنا بموسوعته النقيصة « عجائب التراجم والآثار » لضاعت إلى الأبد حقائق ومعالم كثيرة عن تاريخ مصر في هذا العصر ، ولطمست سير الكثيرين من أعلامه . نعم إن الترجمة العربية لم تعرف الأسلوب النقدي ، ومنهج التحقيق العلمي ، لأنها ازدهرت في

من أنفس آثار الترجمة العربية إن لم يكن أنفسها جميعاً . فهو موسوعة شاسعة تحتوي على أكثر من ثمانمائة ترجمة لأعلام الأمم الإسلامية ، ومنها تراجم ضافية تملأ صفحات كبيرة ، ومنها تراجم موجزة ، ولكنها تمتاز جميعاً بالتحقيق ودقة التصور ؛ وقد عني ابن خلكان عناية خاصة بتحقيق الأسماء والتواريخ ، ونستطيع أن نقول إنه أول مؤرخ عربي جعل من الترجمة فناً حقيقياً ، وما زال معجبه إلى عصرنا من أهم المراجع التاريخية وأنفسها . وبلغ فن الترجمة ذروة ازدهاره في القرنين الثامن والتاسع ؛ وظهرت فيه الموسوعات الفنية الشاسعة ، وخص كل عصر وكل قرن بأعيانه وأعلامه ، ونستطيع أن نذكر من آثار هذا العصر ، كتاب « أعيان العصر وأعوان النصر » لصلاح الدين الصفدي المتوفى سنة ٧٦٤ هـ ، وهو موسوعة كبيرة في تراجم الأعلام المعاصرين لم يصلنا منها سوى بضع مجلدات . وللصفدي أيضاً كتاب « الوافي بالوفيات » ، وهو موسوعة عامة في تراجم أعلام الأمم الإسلامية من سائر الطبقات والطوائف منذ الصحابة إلى عصره ، ولم يصلنا منها أيضاً سوى بضعة مجلدات ؛ وقد ذيل عليها مؤرخ مصر أبو المحاسن بن تئري بردي بكتاب عنوانه « النهل الصافي والمستوفى بعد الوافي » ضمنه تراجم الأعلام منذ منتصف القرن السابع إلى عصره أي إلى منتصف القرن التاسع . ولدينا منذ القرن الثامن سلسلة متصلة من معاجم الترجمة ، يختص كل معجم منها بقرنه ، وأولها كتاب « الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة » للحافظ بن حجر السقلافي ؛ ثم كتاب « الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع » لشمس الدين السخاوي ، وهو من أنفس معاجم الترجمة وأقواها من الوجهة النقدية ؛ ثم كتاب « الكواكب السائرة بمنابح أعيان المائة العاشرة » لنجم الدين الغزي العامري ، ثم « خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر » للمحبي الحموي ؛ ثم « سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر » لأبي الفضل المرادي . وقد ترجم لنا عبد الرحمن الجبرتي مؤرخ مصر في عهد الفتح الفرنسي طائفة كبيرة من أعيان مصر في القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر ، وهو يصل بذلك سلسلة التراجم . وترجم لنا المغفور له العلامة علي باشا مبارك كثيراً من أعيان مصر في العصر الأخير في كتابه « الخطط التوفيقية » ؛ ووضع المغفور

(١) يستطيع من يريد التوسع في معرفة كتب التراجم والبير أن يرجع إلى كتاب « الإعلات بالتاريخ لمن ذم التاريخ » للسخاوي ، وكتاب « كشف الظنون في أسماء الكتب والفنون » لحامد خليفة .

ولاريب أن معظم التبعة في ذلك الاهمال المشين ترجع إلى نوع . الثقافة التاريخية الذي نلقاه في مدارسنا ؛ فهذه الثقافة مازال قاصرة ، بعيدة عن أن تخصص التاريخ القومي بما يجب من عناية ، بعيدة عن أن تدكي الشعور الوطني في نفوس النشء . والشعور بالكرامة القوية هو أول دافع للشباب والباحثين على استقصاء سير عطاء الوطن ثم على تحقيقها وتدوينها .

— هذه كلمة أخرى نرسلها على صفحات « الرسالة » لنبيه على إحدى مواطن الضعف في ثقافتنا وآدابنا التاريخية ؛ ولندكر بها إخواننا الذين فكروا منذ عام في وضع تراجم وافية محققة لعطاء مصر في العصر الحديث أن يبادوا البحث في هذا المشروع العلمي الوطني الجليل ، ولعلمهم موفقون هذه المرة إلى تحقيقه وإخراجه ؛ فيسدون بذلك ثغرة مشينة في تاريخنا القومي ويضمون سنة حسنة في آدابنا التاريخية ، ويستحقون بذلك عرفان الجيل الحاضر والأجيال القادمة .

محمد عبد الله هاشم
الحامى

عصر كان التاريخ فيه أقرب إلى الرواية ؛ ولكنها مع ذلك تتمتع فضلاً عن غزير مادتها بكثير من التحقيق التاريخي ، وفي وسع المؤرخ الحديث أن يستخرج منها نقائس ماذنه ؛ وقد كان الجبرتي خاتمة هذا التبت الحافل من مؤرخين عنو بتدوين الحوادث والتراجم المعاصرة ، ولم يقع لرائنا مثل هذا الأثر النفيس منذ الجبرتي أى منذ أوائل القرن التاسع عشر . وقد تقدمت الباحث التاريخية في العصر الأخير تقدماً واضحاً ، وبدى بكتابة تاريخ مصر الحديث^(١) ؛ ولكننا حتى في هذه الناحية العامة مازالنا في مستهل جهودنا ؛ وما يبعث على أشد الأسف والألم أن نجد عناية الكتاب الغربيين بكتابة تاريخنا الحديث سواء من الوجهة العامة أو من بعض الوجوه الخاصة أوفر من عنايتنا ، وأن نجد في مختلف اللغات الأوربية من الآثار المتعلقة بتاريخنا أكثر مما نجد في لغتنا العربية .

أما النواحي الخاصة بتاريخنا القومي ، وأما سير عظائنا ، وهي التي أوحى لنا بكتابة هذا الفصل ، فما زالت مغمورة منسية . وأى نسيان ، بل وأى نكران أشد من أن يبقى ذلك التبت الحافل من عظائنا ومفكرينا في العصر الحديث دون ذكر محقق منظم ؟ أليس مما يشين نهضتنا العلمية والأدبية أن يحرم رجال مثل عرابي والبارودي وعلى مبارك ومحمد عبده ومصطفى كامل وسعد زغلول وغيرهم من أبطال نهضتنا القومية من تراجم ضافية ، نقدية محققة يقرأها الشباب والخلف ؟ إن العطاء في الأمم المتمدينة يذكرون دائماً أثناء حياتهم بما يخلد ذكركم بين مواطنهم ؛ فإذا توفي أحدهم صدرت عنه غداة وفاته الفصول والكتب المحققة ، هذا عدا ما يكون قد صدر منها أثناء حياته . أما نحن فننظر إلى التاريخ المعاصر نظرة الجلود والاستخفاف ، ونكتفي يوم يذهب أحد عظائنا بأن نشيعه إلى قبره يبعث بعض المقالات والرائي ، ثم لا يلبث أن يغمره النسيان إلى جانب أسلافه ؛ وهكذا يتكدر أمامنا تبت عظائنا فلا تلقى من سيرهم وأعمالهم إلا صوراً مشوهة ، بينما نعرف الكثير عن عطاء الأمم الأخرى ، لأننا نجد في سيرهم كتباً محققة ممتعة تشوق قراءتها .

(١) يسرنى أن أتوه بهذه المناسبة بمجهود صديق المؤرخ الكبير الأستاذ عبد الرحمن الرافعي بك وكتابه الجامع القيم « الحركة القومية ونظور نظام الحكم في مصر » وهو خير ما أخرج بالعربية في تاريخ مصر الحديث .

لجنة التأليف والترجمة والنشر

كتب مدرسية

تطلب المكتب الآتية التي قررتها وزارة المعارف من اللجنة بشارع الكرداسى رقم ٩ وتمنأ كالآتى : —

١٠٠	مبادئ الكيمياء الجزء الأول	:	للسنة الثالثة الثانوية
١٠٠	مبادئ الكيمياء الجزء الثانى	:	للسنة الرابعة الثانوية
١٠٢	مبادئ الميكانيكا	:	للسنتين الرابعة والخامسة الثانويتين
١٥٠	النتخب من أدب العرب الجزء الأول	:	للسنة الثالثة الثانوية
٢٥٠	النتخب من أدب العرب الجزء الثانى	:	للسنتين الرابعة والخامسة الثانويتين
١٢٠	المجلد فى تاريخ الأدب العربى	:	للسنة الثالثة الثانوية
١٠٠	الفصل فى تاريخ الأدب العربى الجزء الأول	:	للسنتين الرابعة والخامسة الثانويتين
٢٠	كتاب الاخلاق	:	للسنة الثالثة الثانوية
١٢٠	تاريخ القرن التاسع عشر	:	للسنة الخامسة الثانوية